فَلَقَدْ عُرِفْتَ، وَمَا عُرِفْتَ حَقِيقَةً،
وَلَقَدْ جُهِلْتَ، وَمَا جُهِلْتَ خُمُولَا[١]
نَطَقَتْ بِسُؤْدُدِكَ الْحَمَامُ تَغَنِّياً،
وَبِمَا تُجَشِّمُهَا الْجِيَادُ صَهِيلَا[٢]
مَا كُلُّ مَنْ طَلَبَ الْمَعَالِيَ نَافِذاً
فِيهَا وَلَا كُلُّ الرِّجَالِ فُحُولا[٣]

أنت النهاية في الكمال

نظر إلى جانبه ثياباً مطوية فسأل عنها فقيل: هي خلع الولاية، وكان أبو الطيب عند وصولها عليلاً فقال:

[الوافر]

أَرَى حُلَلاً مُطَوَّاةً حِسَاناً
عَدَانِي أَنْ أَرَاكَ بِهَا اعْتِلَالِي[٤]

= لتعطلت قواهم واستغنَوْا عن طلب المعاش لتوفره في أيديهم ولما عرفوا الرجاء بأن الممدوح سيمدّهم بعطائه.

(١) الخمول: الكسل وقلّة نباهة المرء. لقد علم الناس بسخاء الممدوح وجوده، ولكنهم لم يعرفوه حقيقة المعرفة، وفي هذه الحالة فهم يجهلون حقيقة وسرّ عظمته، وجهلهم للممدوح لم ينتج عن خموله بل عن تقصير منهم وعدم فهمه.

(٢) السؤدد: العظمة والسيادة. تجشم الأمر: تكلّفه بمشقّة. يُردف الشاعر كلامه موضحاً سرّ عظمة ممدوحه، فقد تغنّى الحمام بمدحه وتجاوبت أصداء عظمته في غنائها، وكذلك قد أعلنت الخيول عن انتصاراته وأعماله بأعدائه المشهورة.

(٣) نافذاً: متفوّقاً ماضياً في تحقيق ما يصبو إليه. يُنهي الشاعر قصيدته بحكمة أن الفلاح والنجاح له رجاله، والممدوح واحد من هؤلاء إنه يمضي في تحقيق ما تهفو إليه نفسه من رفعة وسؤدد وأمجاد، وفي المقابل فالكثير من البشر لا يبلغون أمانيهم لضعف في إراداتهم، وهم ليسوا من الفحول الأشداء الأقوياء.

(٤) عداني: منعني. اعتلالي: مرضي. يُبدي الشاعر سروره بأنه رأى خُلعة الولاية ولقد حال دون رؤية ممدوحه يتحلّى بها أنه كان مريضاً، فقد كانت مطوية، وكان في خلده أن يراه يختال فيها فرحاً مسروراً.

وَهَبْكَ طَوَيْتَهَا وَخَرَجْتَ عَنهَا
أَتَطْوِي مَا عَلَيْكَ مِنَ الْجَمَالِ[١]
لَقَدْ ظَلَّتْ أَوَاخِرُهَا الأَعَالِي
مَعَ الْأُولَى بِجِسْمِكَ فِي قِتَالِ[٢]
تُلَاحِظُكَ الْعُيُونُ وَأَنتَ فِيهَا
كَأَنَّ عَلَيْكَ أَفْئِدَةَ الرِّجَالِ[٣]
مَتَى أَحْصَيْتُ فَضْلَكَ فِي كَلَامٍ؛
فَقَدْ أَحْصَيْتُ حَبَّاتِ الرِّمَالِ[٤]
وَإِنّ بِهَا، وَإِنَّ بِهِ لَنَقْصاً
وَأَنتَ لَهَا النِّهَايَةُ فِي الْكَمَالِ[٥]

---

(١) هبك: افترض أنك. ولنفرض أنك لم ترتد الخلعة، ورغم أنها زينة، فإنها لن تزيد عليك جمالاً، لأنك جميل بطلعتك وحميد أخلاقك وفضائلك.

(٢) إنه صراع التفاضل، صحيح أن تلك الخلعة جميلة إلّا أنها جمال خارجي، في حال أنها غطت جسدك، فقد قام صراع بين الداخل والخارج، لذا حسد وتقاتل؛ فقد نالت الخلعة فضلاً وتكرمة وذلك لأنها لامست جسداً عظيماً صاحبه، فاكتسبت بذلك جلالاً وعظمة وفخراً.

(٣) الكلّ يُحيط الأمير بنظرات الإعجاب والحبّ والفرح بسبب ما آل إليه أمره من المجد، وفي تكريم الأمير يرى هؤلاء تكريماً لأنفسهم، لذا فكأنهم هم من تولى المسؤولية، فلا عجب أن يُسرّوا ويفرحوا لذلك.

(٤) أحصى: عدّد. إن الممدوح مجمع الفضائل التي لا تحصى، ولو استطاع الشاعر إحصاءها لأمكنه أن يحصي حبات الرمال، وذلك محال لأن المعنوي لا يُعدّ أصلاً كما لا يُعدّ الرمل وما شابهه.

(٥) يُقرّر الشاعر حقيقة أن الخلعة لا تزيد ممدوحه بهاءً وكذلك أن المدح لا يُضيف إليه جديداً، ذلك أن الكمال في نهايته قد اجتمع لديه.